نحب البيئة و نحافظ عليها

٤

شبح التصحر الزاحف

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

إحْدى مُشْكلاتِ البيْئةِ!

عـادةً مـا يُعْطِـي أُسْتـاذُ مـادّةِ الجغـرافيـة (الأستاذ فيصل) طُلابَه فُرْصةً لا تَتَجاوزُ عَشْرَ دقائقَ للاسْتِفسارِ عن بَعْضِ الإشْكالِيَّاتِ العامَّة ، أو طَرْح بَعْضِ الملاحَظاتِ والاقْتِراحاتِ ، أو المُناقَشاتِ الهادِفةِ...

وهَكَذا.

وفي صَبِيحةِ يوم الإثنينِ المَاضِي ، وقَبْلَ التَّوجُّهِ إلى المدرسةِ ، سَمِعَ الطَّالبُ (أنور) البرنامجَ الإذاعيَّ اليوميَّ: أَهَمّ عناوينِ الصُّحُفِ المحلِّيةِ والعالميَّةِ.

فاسْتَوْقَفَه هذا العنوانُ الواردُ في إِحْدى الصُّحُفِ العربيَّةِ: شَبحُ التَّصحُّرِ يكتسحُ كثيراً من المناطقِ! وفي ثَنايا الخَبرِ: إنَّ حوالي (٦٢٨) مليون نسمة يُهَدِّدُهُم خَطَرُ التَّصحُّر بصورةٍ أو بأُخْرى.

وحاولَ أن يُحَلِّل الخَبرَ ، ويُفنِّده ، لكنْ دُونَ جدوى ، فَحَملَ أَمْتِعةَ المدرسةِ ، وانْطَلقَ مُسْرِعاً ، وبعدَ الاجتماعِ الصَّباحيِّ المعهودِ ، دَخَلَ (أنور) مَعَ أصدقائه إلى الصَّفِّ ، ودخلَ وراءهم الأستاذُ (فيصل) ، ولمَّا ألقى عليهمُ السَّلامَ ، قال (أنور): عندي مُشْكلةٌ مُعقَّدةٌ!

فقالَ الأستاذُ.. وهو يمازِحُه: مشكلةٌ عائليةٌ أم مشكلةٌ مدرسيَّةٌ؟!

وضَحكَ الأَصْدقاءُ.. ثم قال (أنور): بل هي

مُشْكِلةُ عَدَم فهمي لخبرٍ سَمِعْتهُ من الإذاعةِ صَبِيحةَ هذا اليومِ.

فقالَ الأستاذُ: وما هو الخَبرُ يا أنورُ؟

وتكلَّم (أنور) بما سَمِعَ من الإذاعةِ ، فقالَ الأستاذُ (فيصل): هذه إحدى المُشْكلاتِ البيْئيَّةِ المُلِحّةِ..

وأمَّا مَفْهُومُ التَّصحّر فيعني: امتدادَ الظُّروفِ الصَّحراويَّةِ باتِّجاه المَناطقِ العادِيَّةِ ، وبالتَّالي تَقْهَرُ المسافاتِ الرَّعويةَ ، أو الغابِيَّةَ ، أو الزِّراعيةَ..

مثالُ ذلك: دراسةٌ أَجْرَاها أحدُ العُلماءِ واسْمُه (راب) على السُّودان بالذَّاتِ ، فتبيَّنَ له أن الصَّحراءَ زَحَفَتْ على الأراضي الزِّراعيةِ والرَّعَويَّةِ ، خلال (١٨) عاماً بمقدار (٩) كم سَنَوياً.

حالاتُ التَّصحُّرِ وأَشْكالُها!!

وتابَعَ الأُستاذُ تَفْصِيلَه لهذه الفقْرةِ قائلاً:

وتختلفُ حالةُ التَّصحُّرِ من منطقةٍ لأُخْرى ، وذلكَ تبعاً لاخْتِلافِ نوعيةِ العلاقةِ بين الإنسانِ وبين البيئةِ.

فهناكَ تَصحُّرٌ خَفِيفٌ: حيثُ لا يؤثِّرُ كثيراً في تَدْميرِ الغِطاءِ النَّباتيِّ والتُّربةِ.

وهناكَ تَصَحُّرٌ مُعْتدلٌ: حيثُ يدمّرُ الغِطاءَ النَّباتيَّ ، ولكن بشكلٍ يتكوَّنُ معه كُثْبانٌ رمليةٌ ، إضافةً إلى تَمَلُّحٍ واضِحٍ للتُّربةِ ، ممَّا قد يُؤثِّرُ في عائدِ الإنْتاجِ.

وهناك تَصحُّرٌ خَطِيرٌ ، حيثُ تتكوَّنُ الأوديةُ العميقةُ والأخاديدُ ونحو ذلك ، إضافةً إلى ارتفاعِ

نِسْبةِ المُلوحةِ ، فتصلُ الحالةُ إلى درجةِ العُقْمِ الإنْتاجِيِّ!

أمَّا مَظاهرُ وأَشْكالُ التَّصحُّرِ ، فتتلخَّصُ فيما يلي:

١ ـ تَعْرِيةُ الطَّبقةِ العليا من التُّربةِ: خاصَّةً على سُفُوحِ الجبالِ والمُنْحَدَراتِ.

٢ ـ الزِّيادةُ في نَشاطِ الكُثْبانِ الرَّمليةِ ، بحيثُ تُؤثِّرُ سلباً على تَدَهْورِ الغِطاءِ النَّباتيِّ ، وتدميرِ بعضِ الأراضي الرَّعويةِ والزِّراعيةِ ، مثالُ ذلك: ما حَدَثَ في إيران ، حيثُ دفنتِ الكُثْبانُ الرَّمْليةُ بعضَ القُرى!

٣ ـ تناقُضُ الغِطاءِ النَّباتيِّ ، وتَدَهْوُر نَوْعِيَّته: وذلك نتيجةُ الظُّلم الذي يمارِسُه بعضُهم ، وذلك بالقَطْع أو الرَّعْي بالنسبةِ للغاباتِ والأَشْجارِ..!!

٤ ـ تملُّحُ التُّربةِ الزِّراعيةِ: ممَّا يُؤدِّي إلى انْحِسارِ الأراضي ذاتِ الخُصُوبةِ ، لتكونَ النَّتِيجةُ الحَتْمِيَّةُ نَقْصَ الإنتاجِ العامِّ.

ما هي العَوامِلُ التي تُؤدِّي إلى التَّصَحُّرِ؟!

وتابعَ الأستاذُ (فيصل) قولَه:

هناكَ بعضُ العَوامِلِ التي تُؤَدِّي إلى التَّصَحُّرِ ، أَهَمُّها:

١ ـ طَبيعةُ المُناخِ: بالمُناخِ الجَافِّ تَزْدادُ ظَاهِرةُ التَّصحُّر ، خاصَّةً في الأماكنِ التي تكونُ فيها مُعَدَّلاتُ هُطُولِ الأَمْطارِ ضَعِيفةً ومُنْخَفِضةً ، وكذلك في الأماكنِ التي يتوالى عليها كلَّ فترةٍ عددٌ من السَّنواتِ الجافَّة ، كما حَدَثَ ويَحْدُثُ الآن في بعضِ الدُّولِ الإفْريقيَّةِ.

٢ ـ الإنسانُ: وقد صَدَقَ القائلُ (الإنسانُ هو

صانِعُ التَّصحُّرِ) ، ويتمثَّلُ ذلك في:

أ ـ التَّسارع في النُّمو السُّكاني: بحيثُ يُؤدِّي ذلك إلى الفَوْضَى في اسْتِخْدامِ الأراضي الزِّراعيةِ ، أو الرَّعوية ، ونحو ذلك.

ب ـ اسْتِخْدام الأَرْض: ممَّا يُؤْسَفُ له أنَّ الكثيرين مِنَ النَّاس لا يَسْتَخْدِمُون الأرضَ اسْتِخْداماً سليماً ، إنَّما يَسْتَخْدِمُونها اسْتِخداماً غيرَ عاقلٍ ولا راشد ، وهذا يُؤدِّي في كثيرٍ من الأَحْيانِ إلى تَدَهْورِ الكِساءِ النَّباتي والتُّرابي ، وإلى شُحِّ المِياهِ الجَوْفِية أيضاً ، ويَتَجلَّى ذلك في بعضِ المَظَاهرِ السَّيئةِ:

١ ـ التَّعدِّي البَشَري على نِعْمةِ اللهِ بِحُجَجٍ ما أنزلَ اللهُ بها من سُلْطانٍ!

وَرَفَعَ (إحسان) إصْبَعَه وقال: أتسمحُ يا أستاذُ أنْ أشرحَ هذه الفقرةَ؟

فتبسَّمَ الأستاذُ وقال: هاتِ ما عندكَ يا إحسانُ!

فوقفَ (إحسان) وقالَ:

لقد حَضَّتِ الشَّريعةُ الإسْلاميَّةُ على إعْمارِ الأراضي وتَشْجِيرها واسْتِصْلاحِها والحِفاظِ على الثَّرواتِ فيها.

وبالتَّالي فالبيئةُ ليستْ مُلْكاً لأحدٍ ، إنَّما هي ملكٌ للجميعِ ، والإنسانُ وَصِيٌّ عليها ، فإنْ فَرَّطَ في ذلك كان مَسْؤولاً عن ذلك أمامَ اللهِ تعالى.

بَيْنَما إذا حافَظَ عليها ، وسارَ على المَنْهجِ القَويمِ ، وشَكَر اللهَ وَحْدَه ، كانتِ النَّتِيجةُ حَسَنةً ونافِعةً ، مِصْداقُ ذلك قولُه تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾

[النحل: ١١٢].

فَخزائنُ اللهِ مليئةٌ بالخَيْراتِ والبرَكاتِ ، لكن لمن حافَظَ عليها ، وشَكَر المُنْعِمَ ، وهو اللهُ سُبْحانه ، وإلا كان الشُّحُّ والقِلَّةُ والتَّصحُّر ، ونحو ذلك.

وفي مَكانٍ آخرَ يرسُمُ البيَانُ الإلهيُّ الطَّريقَ الذي يَحْفَظُ نِعَمَ اللهِ تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ونرى في بَعْضِ الأماكنِ أُناساً يَنْطَلِقُون إلى الجِبالِ والغاباتِ ، وبين ليلةٍ وضُحَاها.. يُحَوِّلُون منطقةً شَجَريةً إلى منطقةٍ صَحْراويَّةٍ!!

أَجَلْ: تُقْطَعُ أَشْجارٌ كَبِيرةٌ ورائِعةٌ ، بِحُجَجٍ أنَّهم يُرِيدُونَ اسْتِخْدامَها للوقود وما إلى هنالك!

وقد سمعتُ من خَطيبِ المسجدِ: أنَّ قَطْعَ الأَشْجارِ حَرَامٌ حَرامٌ حَرامٌ!!

ومَنِ اقْتَرفَ ذلك فَمَصِيرُه إلى نارِ جَهَنَّم!!

فقالَ الأُستاذُ (فيصل): أحسنتَ يا إحسانُ! فقد قَدَّرتِ الإحْصائياتُ أنَّ حَجْمَ اسْتهلاكِ الأُسرةِ الواحدةِ سنوياً في السُّودان حوالي (٣٢٤) شَجَرةً!!

وبالطَّبعِ ، فَسَيُؤَدِّي ذلك إلى شُيوعِ الجفَافِ ، وقِلَّةِ الأَمْطار ، وانْتِشارِ التَّصحُّرِ.

٢ - الإفْراطُ الرَّعَويُّ والزِّراعيُّ: والمَقْصُودُ بذلك أن تُوضَعَ أَعْدادٌ كبيرةٌ من الحَيَواناتِ أكبرَ من المُعَدَّلِ التي تَسْتَوْعِبُه الأراضي الرَّعَوية ، ممَّا يُؤدِّي إلى مزيدٍ من التَّدميرِ السَّريعِ للغطاءِ النَّباتي ، لتكونَ النَّتيجةُ زيادةً في التَّصحُّرِ.

وخَيرُ دليلٍ على ذلك ما حَدَثَ ويَحْدُثُ في الصُّومالِ...

فكيفَ نُكافِحَ مُشْكلةَ التَّصحُّرِ؟!

وطَلبَ الأستاذُ (فيصل) من الجَمِيعِ المشاركةَ في وَضْعِ حُلُولٍ واقْتِراحاتٍ للوقوفِ في طَريقِ زَحْفِ الصَّحراءِ.

فقالَ (أمجدُ): على الجَميعِ أن يَتَعاوَنُوا في مُكافحةِ هذه الظَّاهرةِ الخَطِيرةِ ، وخاصَّةً أَجْهِزة الإعْلامِ ، وكلُّ مَنْ له علاقةٌ بالتربيةِ والنَّوعيةِ.

وقال (أيهمُ): وعلى القائِمينَ على الأمرِ أن يَعْتَمِدُوا على التَّخطِيطِ السَّليمِ للوقوفِ في وَجْهِ الاسْتِخْدام الرَّعَوي بشكلٍ فَوْضَوِيّ.

وقال (أمجدُ): وأنا أرى أنَّ أهمَّ من ذلك كُلِّه الاهتمامُ بغرسِ الأَشْجارِ ، سواءً كان ذلك على

شَكْل سقايةٍ أو بَعْلٍ ، وبالتالي أن نَغْرِسَ في عُقولِ النَّاسِ أن زِراعةَ شَجَرةٍ واحدةٍ عبادةٌ من العباداتِ التي يُثابُ عليها الإنسانُ ،مِصْداقُ ذلك قولُ رسولِ الله ﷺ: «مامن مُسْلمٍ يغرسُ غَرْساً ، أو يزرعُ زرعاً ، فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة ، إلا كان لَهُ به صَدَقةٌ».

وكُلُّنا يَحْفَظُ ما حَدَثَ مع الصَّحابي سَعْد بن أبي وقَّاصٍ ، حيثُ كان يعملُ في حَقْلٍ له يَسْقي الأشجارَ فسمعَ صوتَ مؤذِّنِ رَسُولِ الله ، وحارَ في أَمرْه ، أيتركُ السِّقايةَ ويهرعُ إلى الصَّلاة خلفَ النبيّ؟ أم يتابعُ مسألةَ السِّقايةِ ، ويتركُ الذَّهابَ إلى المسجدِ؟!

واستقرَّ رأيُه على البقاءِ في العملِ.. ، ولمَّا انْتَهى من ذلك ، انطلقَ مُسْرِعاً إلى المَسْجِد النَّبويِّ ، ولمَّا دَخَل وَجَدَ النبيَّ مع الصَّحْبِ

الكرامِ ، فدخلَ وصلّى الفريضةَ والنَّافلةَ ، ثم التحقَ بحلقةِ العلمِ.

لكنْ لمَّا رآه رسولُ الله مَدَّ يَدَه وقال: «امددْ يدكَ يا سَعْدُ».

وعلى اسْتِحْياءٍ مدَّ سعدٌ يدَه ، التي تَشَقَّقتْ وتعبتْ وعَلاها الغُبارُ ، فلما وَضَعها في يَدِ رسولِ الله ، رَفَعها الرسولُ وقَبَّلَها ، ثم قال: «هذه يدٌ يحبُّها اللهُ ورسولُه».

وقال (إحسان): وعلى القائِمينَ على الأَمْرِ أن يسنُّوا القَوانينَ الصَّارمةَ للضَّربِ بيدٍ من حَديدٍ على كلِّ مَنْ يُقدمُ على قَطْعِ الأَشْجارِ ، أو يَحْرِقُها...

إنَّه العَهْدُ يا أعزَّائي

وتعاهَدَ الأستاذُ (فيصل) مَعَ طُلابهِ على

القِيامِ بِحملاتِ تَوْعيةٍ من أَجْلِ مكافحةِ انْتِشارِ التَّصحُّرِ ، وخاصَّةً لدى بقيةِ الطُّلابِ والعَائلاتِ من أَجْلِ مَزيدٍ من عملياتِ غَرْسِ الأَشْجارِ ، وفي كُلِّ مكانٍ.

وبالفعْلِ لاقى هذا العَهْدُ صَدَى واسِعاً ، وآتى ثِماراً يانِعةً ، وما مَضَى على ذلك عِدَّةُ أَشْهرٍ حتى أصبحتْ أرصفةُ الطُّرقاتِ في القريةِ في حالٍ أَحْسَن ، وأمَّا الأَشْجارُ فيها فقد اخْضَرَّتْ أوْراقُها ، وهكذا السَّاحاتُ العامَّةُ.. وساحاتُ المَدَارسِ.. ، وصَدَقَ اللهُ تعالى عِندَما قال:

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾

[التوبة: ١٠٥].

والحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ